

مع يوسف أكميز في كتابه من الخوزيرات إلى تطوان⁽¹⁾

محمد العربي المساري

يتناول الكتاب تطور الأوضاع المرتبطة بالحالة في المغرب طيلة ثلاثة عقود تقع في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين. وقد برر المؤلف اختياره لهذه الفترة بأنها سبقت انعقاد مؤتمر الخوزيرات الذي تم فيه الفصل فيما سمي في وقته بـ"المسألة المغربية" و تم فيه تحضير تقسيم الأدوار فيما بين الدول الأوربية وخاصة فرنسا وإسبانيا. وفي ذلك المؤتمر انتزعت هاتان الدولتان من الدول العشر الأخرى الاعتراف بألوبيتهما في عملية "إلحاق المغرب بالحضارة"، وانتزعتا من المغرب التسليم بأنهما مكلفتان من لدن الدول الأوربية ذات الاعتبار، بإضافة الولايات المتحدة، بتلقين المغرب الإصلاحات التي لا بد منها من الناحيتين الإدارية والمالية.

وقد مهد المؤلف لذلك بنبذة تاريخية مدققة ومضبوطة عن فترة يعرفها جيدا بحكم أنه سبق أن أنجز ونشر أعمالا تتناول بالتفصيل الحلقات الزمنية التي سبقت فرض الحماية على المغرب. و سبق لي في مناسبة أكاديمية هنا بالذات في رحاب جامعة أكادير، أن سجلت أن القرن التاسع عشر الإسباني هو بالنسبة ليوسف أكميز ساحة مطروقة، يعرفها جيدا ويعرف الدروب المؤدية إليها، وهذا شيء إيجابي بالنسبة لمن يدرس تلك الفترة من تاريخ المغرب.

كما أعود فأقول إن التاسع عشر الإسباني يستحق التعمق من لدن المغاربة لأنه يتعلق بفترة من تاريخ أمة تشبهنا. فقد عاشت إسبانيا فترة مجيدة ثم وجدت نفسها تتخبط في أزمت حادة، بما فيها أزمة هوية، عرضتها لفقدان مقعدها بين الكبار في أوروبا، مثل ما عرف المغرب نكسات، عرضته إلى فقدان مركزه كأمة مستقلة متحكمة في مصيرها، وأدت به إلى أن يقع في التبعية. وهكذا يكون التاسع عشر مهما بالنسبة لدارس كل من إسبانيا والمغرب .

(1) قدم هذا العرض في إطار تقديم كتاب الأستاذ أكميز يوسف يوم 22 فيراير 2011. بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير

والآن، أعود فأهني الأستاذ يوسف أكميز على متابعة مشواره عبر التاسع عشر الإسباني، وهي مسيرة ساعدته على أن يطوق الموضوع الذي تصدى له، ويتحكم فيه جيدا ويخرج بعمل متين في مادته، مفيد للمكتبة المغربية التي تزداد معرفة بمحيط بلادنا في فترة حاسمة من تاريخها، من خلال التعرف أكثر على أهم الفاعلين في الساحة الدولية حينئذ.

وقد قسم المؤلف كتابه إلى ثلاثة فصول، كالتالي:

الأول - مغرب ما قبل الخوزيرات. وفيه يستعرض حالة البلاد من خلال أوضاع المخزن المركزي ودوره الديني والسوسيوسياسي، والأزمة المغربية في أبعادها المختلفة، وتأثر المجتمع المغربي بها. ويتفحص المؤلف بالمناسبة الوثيقة المغربية ويستتطقها ليخرج بمعطيات تساعد على تفهم الأوضاع في الفترة التي يغطيها بحثه . وهذا ما نوهت به الأستاذة مارية روصا دي مادارياغا واعتبرته فتحا جديدا في الأبحاث المكتوبة بالإسبانية في هذا الموضوع. كما أن المؤلف تفحص المصادر المغربية والأوربية التي تتناول الفترة المدروسة، ووقف عند تحليل مقولات السببة والعلاقات بين المركز والقبائل. كما سنرى فيما بعد.

الفصل الثاني-إسبانيا ما قبل فرض الحماية. وفيه يتناول أوضاع إسبانيا الداخلية والخارجية منذ 1898. والتيارات السياسية المتصارعة والتحفز للإجهاز على المغرب من خلال التسلل، انطلاقا من مليلية، التي كانت منطلقا للانتشار، ومبررا لابتكار أساليب للتسلل والإعداد النظري للاحتلال في إطار مبتكر في المجتمع الدولي هو نظام الحماية.

وفي الفصل الثالث - مؤتمر الخوزيرات. وهو يعدل الفصلين السابقين معا، من حيث الحجم، بل يفوقهما بأربعين صفحة. وفيه يتناول مؤتمر الجزيرة الخضراء، في حد ذاته، ويستقصي أدوار مختلف الفاعلين، وفي طليعتهم الفاعلون الإسبان الذين كانوا يتحركون في المشهد السياسي الداخلي، والدور الذي قام به كل تيار، وكل جماعة ضغط وصولا إلى امتلاك مؤهلات للتدخل في المسألة المغربية.

ونسجل بصفة عامة أن المؤلف قد تمكن في الفصلين الأول والثاني من التفحص في مقولات السوسولوجيا الكولونيالية، ونزع عنها القداسة بالكشف عن خصائصها المعرفي، وبين كيف أنها نتاج استهداف مسبق لتبرير تدابير السلطات العسكرية والمدنية إن لم تكن تلك المقولات في بعض الحالات هي الحافز لتلك التدابير.

كما سجل المؤلف تشابه المنهجين الإسباني والفرنسي في هذا الباب، وذكر بأنهما يقومان على نظرية بلاد السببة التي قال إن الباحث لا يجد لها أثرا إذا ما رجع إلى الوثائق المغربية. وذكر بالأبحاث التي قام بها مؤرخون مغاربة تصدوا للنظريات الكولونيالية مثل عبد العزيز خلوq التسماني والمختار الهراس وجيرمان عياش. كما أنه تولى بدوره التصدي لجوانب من تلك المقولات ودحضها استنادا إلى الوثائق المغربية. وقد أثبت من خلال الاستشهاد بتلك الوثائق أنه كانت هناك علاقات نظامية بين المخزن والقبائل وكانت هناك تراتبية في النظام القبلي، تشهد بأن القبائل كانت مؤسسة لها مكانها في النسق السياسي والاجتماعي المغربي.

ولم يتجاهل المؤلف العوامل التي أدت إلى فشل الإصلاحات التي حاول بها المخزن تدارك الأحوال المالية والجبائية للمملكة. ولم تفته من جهة أخرى الإشارة إلى مساعي الأطراف الأوربية في إحداث الفوضى وإرباك عمل المخزن. ومن ذلك أن الإسبان كانوا يشجعون التفاوض المباشر مع القبائل، وفي نفس الوقت كانوا يمارسون الضغط على المخزن من أجل التسليم بالمطالب المتعلقة بالتعويضات وأداء الذعائر، ويأتي المؤلف بأمثلة على ذلك.

وأستطرد هنا، بكيفية خاطفة لألاحظ أن المؤلف حينما توقف عند دراسة علاقات القبائل بالمركز، اكتفى وهو يساجل المصادر الإسبانية والفرنسية، بالتعرض لقبائل الشمال في جباله والريف، ولم يأت على ذكر ما يرتبط بقبائل الصحراء.

وعلى صعيد آخر فقد أورد تلخيصا جيدا في ما بين الصفحتين 97 و 99 لأدوار قام بها أهم الفاعلين الأجانب وهم فرنسا وألمانيا وبريطانيا وإيطاليا. ومن خلال ما أورده المؤلف من بيانات نفهم كيف أن تلك الدول، في تسابقها على احتلال مواقع في المغرب، كانت تحذوها رغبات في تبادل المواقع في أوروبا نفسها، وإنجاز المقايضات فيما بينها بتبادل التنازل لبعضها البعض عن أجزاء من دول الجنوب التي كانت تعتمز تقاسمها.

وبين المؤلف كيف أن المغرب ظل مدة طويلة حتى قبل 1898 هدفا رئيسيا للسياسة الإسبانية. واستدل على ذلك بما هو مثبت في المصادر الإسبانية. وأورد أن فرنسا حاولت حصر اهتمامات إسبانيا في أوروبا، لكي تصرفها عن التحرك في المغرب. ويقول (ص155) إن التفاوض بين إسبانيا وفرنسا بشأن المغرب كان يكتسي حساسية كبيرة. وهو يلاحظ أن المغرب كان قد أصبح مسألة أوربية بحكم أن لإيطاليا وبريطانيا بدورهما فيه مصالح من الدرجة الأولى، كما وصفته المصادر الأوربية. وهذا مما جعل

المغرب موضع مقايضات استمرت منذ أواخر القرن التاسع عشر ولم تحسم إلا في وضع سلطان المغرب لخاتمه على معاهدة فاس سنة 1912.

وما أورده المؤلف عن السباق المير الذي خاضته إسبانيا لفرض الاستماع إلى مطالبها المتعلقة بالمغرب، يعتبر بعضه فتحاً جديداً في البحث التاريخي المغربي، وذلك بفضل إقبال المؤلف على المصادر الإسبانية مباشرة، ومنها مصادر لم تكن متاحة من قبل. وهذا يبرر مقترحاً أغتتم الفرصة لتجديده هنا، وهو أن يتم نقل الدراسات التي أنجزها باحثون مغاربة من الإسبانية إلى العربية قصد إتاحتها لمن لا يستطيع الاطلاع على ما هو مكتوب باللغة القشتالية. ولتدارك ذلك أقترح تنظيم حلقات دراسية في رحاب الجامعة للتعريف بالمادة الغزيرة التي تحتضنها تلك الأبحاث.

و في الاستشهادات التي يوردها المؤلف نقف على ما يساعدنا على دحض مقولة إسبانية مشهورة ومفادها أن المغرب لم يصبح له وجود كدولة إلا منذ وقت قريب. ومما يتكرر في كل صباح بالجرائد الإسبانية، أن سبته ومليلية مثلاً هما إسبانيتان من قبل أن يوجد المغرب كدولة. وبما أنني تعرضت مراراً لهذه المقولة التي لا أساس لها، فقد وجدت في بعض ما أورده المؤلف ما يسعفني بحجة إضافية. ذلك أن بعض النصوص الإسبانية تذهب إلى حد القول إن المغرب، حتى في أفق فرض الحماية كان في العقد الأول من القرن العشرين غير موجود كدولة.

من ذلك قول أحدهم (ص 128) إن المواجهة مع المورو في سيدي ورياش، هي قائمة مع جماعات من رجال القبائل المتوحشين، وهذا يختلف عن طبيعة المواجهة التي تخوضها إسبانيا في كوبا أو الفلبين. وقد قال بذلك حتى كاتب هو مؤرخ إلى جانب كونه رجل دولة، وأعني كانوفاس ديل كاستيو الذي نقل عنه يوسف أكميز أنه تجاهل وجود دولة في المغرب كخطة مبيتة من طرفه، حتى حينما يتعلق الأمر بفترة يقر الإسبان أنفسهم بأن المغرب كان فيها دولة. فقد أبلغ كانوفاس فرنسا إن إسبانيا تفضل أن تكون هي المجاورة لها في المغرب، لأن "فرنسا أفضل من قبائل متوحشة" (ص 93) وبمناسبة حادثة سيدي ورياش المتقدمة الذكر في 1893 ردد نائب جمهوري (أي من فصيل تقدمي) في مناقشة برلمانية هو صول إي أورطيجا كلاماً ورد فيه بوضوح أن المغرب ليس بدولة وأن الأمر يتعلق بمجموعة من المتوحشين الذين لا نظام لهم .

وقد تصدى أكميز لكل ذلك بأن شرح حقيقة العلاقة بين القبائل والدولة المركزية وفند جهل الإسبان بأسس الدولة المغربية وطبيعة علاقتها بالقبائل. وهو ما أومأنا إليه من قبل بصدد السوسيولوجيا الكولونيالية.

وهذه فرصة أغتتمها لاقتراح تنظيم حلقة دراسية عن قدم وجود الدولة المغربية السابق بكل تأكيد لاستيلاء البرتغاليين على سبتة، ونزول الإسبان في مليلية وغيرهما من الثغور المتوسطية.

وكما أسلفنا فإن الفصل الثالث من الكتاب يتناول المؤلف الفترة التي دخلت فيها الرؤية الإسبانية لشؤون المغرب في أفق فرض الحماية حيث توقف طويلا عند مؤتمر الخوزيرات، مخصصا حوالي أربعين صفحة لذلك اللقاء الديبلوماسي الذي وجه الأمور بكيفية حاسمة نحو فاس 1912. والباقي رصد فيه المؤلف مواقف مختلف الأطراف الإسبانية من ليبراليين ومحافظين وجمهوريين واشتراكيين، وأيضا الكنيسة التي قام أفراد منها بأدوار مباشرة في الميدان، وخاصة الأب الفرنسيكاني ليرشوندي. كما أوضح من جهة أخرى العوامل الاقتصادية والتجارية التي وجهت التحركات السياسية والديبلوماسية إلى حيث تجسست الأمور عمليا، في شكل شراكة ملفومة بين فرنسا وإسبانيا، لمنح هذه الأخيرة مواقع في الشمال وفي الجنوب، على الأقل نظريا وفوق الخرائط، لأن الأمر لم يستتب لإسبانيا في الجنوب إلا بعد 1934. وهذه نقطة يجب الإلحاح عليها دائما لفك بعض الالتباسات.

ويؤكد لنا المؤلف في هذا الجزء من الكتاب أن المغرب ظل رغم المشاغل الكبيرة التي كانت لإسبانيا كدولة وكمجتمع، ظل نصب أعين المقررين الإسبان. وكان ذلك الهدف مضغوطة باعتبارات معقدة يمكن تلخيصها في مسألتين. الأولى أن الفوز بحصة من المغرب كانت بالنسبة للإسبان ترتبط بالشرف الوطني. والثانية هي الشعور القوي بأن إسبانيا يجب أن تتلافى أن تجد نفسها محاصرة بالبرانس شمالا وبجبل طارق جنوبا وقد اكتنفت ذلك المسلسل الذي طال منذ التاسع عشر، مضايقات لقيتها إسبانيا كانت تتسجها الاتصالات بين فرنسا وبريطانيا التي أثمرت اتفاقات سرية بين هاتين الدولتين.

لقد أردت بهذه الإشارات أن أنوه بالمجهود الهام الذي قام به الأستاذ أكميز لتبسيط الضوء على فترة لم تكن لنا عنها، حتى العقود القليلة الماضية، معلومات ضافية كما هو الحال الآن. كما أن المؤلف أضاف من خلال هذا العمل وغيره الكثير من المعلومات المستقاة من المصادر الإسبانية وهي ثمينة وضرورية للباحث المغربي.

ولعله أصبح في إمكاننا القول إننا نشهد حاليا مسيرة جديدة في الدراسات الإسبانية بالمغرب .